[التناصُ القرآني في مجموعة وثائق الخلافة الفاطمية]

م . د . محمد سعيد طعمة الزهيري

المديرية العامة للتربية / محافظة كربلاء المقدسة

ملخص البحث

هذا البَحثُ يُسلّطُ الضّوءَ على كتاب (مجموعة وثائق الخلافة الفاطمية) ، وهي عبارة عن نصوص وثائقية تخصُّ خلفاء الدولة الفاطمية ، تتضمن موضوعات مختلفة كولاية العهد ، و الوزارة ، والتنصيب ، والعزل ، وقد عمد خلفاء الدولة الفاطمية إلى تضمينها بآيات من القران الكريم ، وسيحاول البحث تسليط الضوء على تلك النصوص القرآنية ، والغاية من استعمالها في المخاطبات الرسمية للخلفاء الفاطميين، وقد تكون البحث من مقدمة يسيرة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة ، إذ تضمن التمهيد التعريف بمفهوم التناص والفرق بينه وبين الاقتباس ، ومن ثم التعريف بكتاب (مجموعة وثائق الخلافة الفاطمية)، أما المبحث الأول فقد تناول الإقتباس القرآني النصي المباشر ، وأما المبحث الثاني فقد تناول الاقتباس القرآني الإشاري غير المباشر ، وهذا المبحث بدوره قد انقسم على قسمين هما : الإقتباس القرآني الإشاري الواضح ، والإقتباس القرآني الإشاري الخفي ، ثم بعد ذلك تأتي خاتمة موجزة بأهم نتائج البحث .

Abstract

[The Quranic Influence in the Fatimid Caliphate Documents Collection]
PH.D.Mohammed Sa'eed Tu'ma Al Zeheiri / General Directorate of Education, Karbala Governorate.

This research sheds light on the book (A Collection of Documents of the Fatimid Caliphate), which is a collection of documentary texts related to the caliphs of the Fatimid state, including various topics such as the crown prince, the ministry, the installation, and the dismissal. The caliphs of the Fatimid state included verses from the Holy Quran in them. The research will attempt to shed light on these Quranic texts and the purpose of using them in the official correspondence of the Fatimid caliphs. The research may consist of a simple introduction, a preface, two chapters, and a conclusion. The preface included

defining the concept of intertextuality and the difference between it and quotation, and then defining the book (A Collection of Documents of the Fatimid Caliphate). The first chapter dealt with direct textual Quranic quotation, while the second chapter dealt with indirect allusive Quranic quotation. This chapter in turn was divided into two sections: clear allusive Quranic quotation and hidden allusive Quranic quotation. Then comes a brief conclusion with the most important results of the research.

ـ مقدمة ــ

الحمد لله الذي أنزل القرآن بأكملِ بيان ، وهدى به الإنسان ، وصلّى اللهُ على نبيّه المصطفى مُحمّد وعلى آله الأطياب الأطهار وسلّم تسليماً كثيراً ، وبعد :

فإنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ ربِّ العالمين ، والمعجزةُ الخالدةُ إلى قيامِ يومِ الدّين ، وقد صارت كلماتُه المنهلَ العذبَ لكلِّ أديبٍ ولكُلِّ عالمٍ ، وقد عَزمْتُ على دراسة موضوع الإقتباس القرآني في مجموعة الوثائق الفاطمية تحت عنوان (التناص القرآني في مجموعة الوثائق الفاطمية) ؛ وذلك لأنني وجدتُ (مصطلحُ التناص) مُصطلحاً جامعاً لأنواع التّأثّر والتأثير بين النّصوص المختلفة ومنها القرآن الكريم الذي قَد يتناص معه النّصُ المُنشَئُ من لدن الأديب ، أما عن سبب اختيار (مجموعة الوثائق الفاطمية) ؛ فقد كان ذلك بتوجيه من قبل أستاذي الجليل جناب الأستاذ الدكتور العلامة محمد الخطيب - أدام الله وجوده المبارك- أستاذ النثر العباسي في جامعة كربلاء المقدسة ، إبّانَ تتلمذي على يديه المباركتين في السنة التحضيرية الأولى من دراستي للدكتوراه في كلية التربية الأساسية في جامعة كربلاء المقدسة ، وفضلاً عن ذلك فلأنني وجدتها عبارة عن أنموذجٍ فني يصلحُ للأستشهاد به عن آلية التناص القرآني ؛ ولأنَّ تلك الوثائق جمعت بين صنفي الإقتباس القرآني: (المباشر) و(غير المباشر) كما سنبين ذلك لاحقاً . وقد فرضَت عليّ مادة البحث وضعَ خُطّةٍ مناسبة للدراسة ، التي تكونت من مقدمةٍ يسيرة ، وتمهيد ، ومبحثين ، وخاتمة بأهم نتائج البحث ، وقد اختصَّ التمهيد بدراسة (مصطلح التناص) والفرقَ بينه وبين الاقتباس ، ثم قمتُ بالتعريف بـ(مجموعة الوثائق الفاطمية) ، ومن ثم يأتي المبحثُ الأول والذي خصصته (للاقتباس القرآني النّصي المباشر) ، ثمَّ المبحث الثاني الذي تفرَّدَ بـ(الاقتباس القرآني الإشاري غير المباشر) وقد انقسم المبحث الثاني بدوره على قسمين هما : الاقتباس القرآني الإشاري الواضح ، والاقتباس القرآني الإشاري الخفي ، وقد ختمتُ البحثَ بأهم النتائج التي خرجَت بها ، وأسألُ الله أن يبارك في هذا النزر القليل ، وأساله سبحانه التوفيق فإنَّه جل جلاله وليُّ التوفيق .

ـ تمهيد ـ

أولاً : مفهوم التناص .

التناص في اللغة : يقال : نَصَّصْتُ المتاع ، إذا جعلتَ بعضَهُ على بعض ، وكُلَّ شيءٍ أظهرتَهُ فقد نصّصْتَه ، ونَصَّ المتاعَ نصّاً : جعلَ بَعضَهُ على بعض[١].

ويبدو أنّ مادة (التناص) تدلُّ على الاحتكاك ، ولها علاقة نُطقية اشتقاقية بكلمة (النص) الأمر الذي أدىّ بالنّقاد إلى اختيارها كمصطلحٍ يستوعبُ المضامينَ المستحدثة أو القديمة المطورة [٢].

أمّا في الإصطلاح : فيذهبُ عدد من الباحثين أنّ مضمونَ التناص وُجدَ في الموروث النقدي العربي بعنوان (السرقات) ، وهي التسمية التي شاعت في كتابات النقاد القدامى ، كما في كتاب (الموازنة بين الطّائيين) للآمدي (ت ٣٧٠هـ) ، وكتاب (الوساطة بينَ المتنبي وخصومه) للقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) ، وكتاب (الإبانة عن سرقات المتنبي) لابن العميدي (ت ٤٣٣هـ)[٣] ، بينما يرى اخرون أن مصطلح التناص اكتشفته لأول مرة "جوليا كريستيفا" في منتصف الستينات من القرن العشرين معتمدةً على آراء العالم اللغوي " فرنادي سويسر" ، والناقد الروسي "ميخائيل باختين"[٤] حيث تقول : ((إنَّ كُلِّ نصٍ هو عبارة عن لوحةٍ فُسيفسائية من الاقتباسات ، وكلُّ نصٍ هو تَشرُّب وتحويل لنصوصٍ أُخرى))[٥] ، وقال بعضُ الباحثين أنَّ التناص أمرٌ حتمي ؛ ((فهو لا يأتي من فراغ كما أنّه لا يفضي إلى فراغ إنّه نتاجٌ أدبيٌّ لغويٌّ لكلِّ ما سبقَهُ من موروثٍ أدبي ، وهو بذرة خصبة تؤولُ إلى نصوصٍ تنتجُ عنه ...))[٦] ، والكلامُ السابقُ لا يبعدُ عن الصواب ؛ لأنّ التناص مع أيِّ نصٍّ إن لم يكُن بقصدِ خلقِ نصٍّ جديد لَهُ خصوصيتُه أو ميزتُه المستقلة لكان الأمرُ لا يعدوا أن يكونَ سرقة للنصوص المتناص معها أو النّصوص المستعارة والتي ((لا بدَّ لها من أنْ توظَّف في النصِّ الجديد لتنفتحَ على تعدّدية قصدية ... وبذلك يكونُ المنتجُ الجديد –النص- الأكثرَ غنىً دلالي من سابقاته))[٧] .

ثانياً : الفرقُ بين التناص والإقتباس .

يُعرفُ الاقتباس بأنّه ((أنْ يُضمَّنَ الكلامُ شيئاً من القرآنِ والحديث لا على أنّه منه))[٨] ، والكلام السابق يشمل المنظوم والمنثور، والاقتباس يتطلّبُ مقدرةً ومهارة في الاستعمال، فهو فنٌ لا يقدرُ عليه إلاّ من لَهُ ((ملكة يتصرّفُ بها كيفَ يشاء))[٩]. والحديث عن الاقتباس يرتبطُ بالقرآن الكريم وذلك لأن القرآن الكريم ((أكسبَ الألفاظَ العربية معانيَ ومدلولاتٍ رائعة يمكنُ أن تفهمَ مجتمعةً في آيةٍ واحدةٍ ، أو تعبيرٍ واحد ... واستعملها العرب تأثراً باسلوب القرآن الكريم في اشعارهم وخطبهم ورسائلهم))[١٠].

وهناك من يرى أنّ الاقتباسَ شكلٌ من اشكال التناص ؛ فهو استلهام وامتصاص لنصٍّ قرآني ، إذ أنَّ هناك مصادر عدة للتناص ومنها التناص الديني ، والتناص الاسطوري ، والتناص الشعبي، والتناص الشعري والتناص بانواعه المختلفة ينتقل بنا عبرَ محاور متعددة ، وتحت قوانين متعددة كالإجترار ، والإمتصاص ، والحوار[١١]، وإن كان الاقتباس يعني اقتطاع النص السابق والزّج به في النّص اللاحق ، فإنّ ذلكَ يعني انشاء علاقة ما بين النّصين فريدة وحميمة تنتهي باحاطة القارئ بمناخ دلالي يدفعهُ إلى قراءة تأويلية ، ويرى بعضُ الباحثين أنّ ذلك الاقتباس قد يكون بوعيٍ وشعورٍ من الأديب أو بغيرِ وعيٍ وشعورٍ منه[١٢].

ولذلك يرى بعض من الباحثين أنّ (التناص) يعني أن ((يُضمَّنَ نصٌ أدبيٌ ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس او التضمين ، أو الإشارة ، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الاديب ، بحيث تندمجُ هذه النصوص ، او الأفكار ، مع النّص ، وتدغم فيه ؛ ليتشكلَ نصٌ جديدٌ واحدٌ متكامل))[١٣] . ومن الباحثين من يرى اشكالاً في استخدام مصطلح (التناص القرآني) والسبب في ذلك هو مخافةُ اللّبس عند بعض المتلقين ، إذ يُدلل مصطلح (التناص القرآني) أنّ المأخوذَ هو القرآن ، كما يصحُّ أن يكونَ الآخِذُ أيضاً [١٤]. ولا نجدُ في الإشكال السابق سبباً يدعو للعدول عن مصطلح (التناص القرآني) ، فالقرآنُ الكريم هو المعجزة الخالدة ، وهو كلامُ الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديه ولا من خلفه ، فبات من البديهي والمتبادرِ للذهنِ لكُلِّ متلقٍّ أن يفهم بالبديهة أنّ المأخوذَ أو المُتَأثَّر به هو القرآن ، لا أن يكونَ هوَ الآخِذُ والمُتأثِّر .

ثالثاً : مجموعة الوثائق الفاطمية .

عملَ الخلفاءُ الفاطميون منذ قيام دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ وبعد انتقال خليفتهم الرابع (المعز لدين الله) إلى مصر ٣٦٢هـ على نشرِ الثقافة العلمية والأدبية ، فضلاً عن نشرِ الثقافة المتعلقة بالمذهب الاسماعيلي القائل بإمامة اسماعيل بن جعفر بن محمد الباقر (عليه السلام) جدَّ الخلفاءِ الفاطميين ، واليه نُسِبَت الاسماعيلية ، وبما أنَّ اسماعيل بن جعفر الصادق (عليهم السلام) كان الوريث الشرعي –بحسب العقيدة الاسماعيلية- فلا بدَّ إذن من أن تتسلسلَ الإمامةُ في ابنه ((محمد بن اسماعيل)) والأئِمّة من صلبه[١٥] ، و ((مجموعة الوثائق الفاطمية)) عبارة عن نصوص وثائقية تتضمن موضوعات مختلفة كولاية العهد ، أو الوزارة ، وقد برزَ فيها الأثرُ القرآني واضحاً جلياً وسيحاول البحث تسليطَ الضوءِ على ذلك الأثر القرآني ، والغاية منه .

يمكن القول أنَّ التناص القرآني في (مجموعة الوثائق الفاطمية) اتخذ شكلين أساسيين هما :

أولاً : الاقتباس القرآني النَّصي (المباشر) .

ثانياً : الاقتباس القرآني الإشاري (غير المباشر) .

وسوف نبدأ بالقسم الأول من التناص القرآني وهو :

أولاً : الاقتباس القرآني النَّصي (المباشر) .

وهوَ أخذُ النّصِ القرآني مثلمَا هو من دونِ تغييرٍ يمسُّ شكلُهُ أو جوهرُهُ؛ ذلك أنّ هذا النّوعَ يتِمُّ بالنقلِ الحرفي لهُ، ولا بدَّ في هذا الصّدَد من الإشارةِ إلى أنّ عمليّةَ الإقتباس لدى الخلفاء الفاطميين لَمْ تكُنْ عمليةً اعتباطيةً من دونِ مُراعَاةٍ للموضوع، والسياق، والدّلالة، بل نرى المبدِعَ في اثناءَ الإقتباس يتمتّعُ بأُفقٍ واسعٍ من الثقافةِ القرآنية التي تمكنهُ من ذلك، فالإقتباسُ فَنٌّ لا يقدِرُ عليه إلاّ مَنْ لَهُ ملكة يتصرَّفُ بها كيفَ يشاء كما أشرنا [١٦].

ومن ذلك ما جاء في أحدِ الوثائقِ التي تتضمنُ إعلاناً بولاية العهد من خليفةٍ لولده ، ما نصّه : ((وفاوضْ أميرَ المؤمنينَ في مشكلاتِ الامر ، [ولا ينبئُكَ مثلُ خبير]) [١٧] . والعبارة الأخيرة في النص السابق آيةٌ من قوله تعالى : {ويومَ القيمة يكفرونَ بشركِكُم ولا ينبئكَ مثلُ خَبيرْ} [١٨] فالآية القرآنية المباركة في حقيقتها خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أي أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو وحده يخبرك بالشيء على حقيقته ، فهو سبحانه عالمٌ بما أخبر[١٩] ، ولكنّ الآية المباركة وجّهَت دلالالتها لتعطي دلالةً أخرى مفادها أن الخليفة الأب هو الأعلم والأفهم ؛ وذلك لخبرتِهِ في مجالَ السياسة ، وأن الابن عليه اتباع ما يُملى عليه من والده ، وهذه هي وظيفة التناص ، إذ يعمل على تأكيد الفكرة وتعزيزها ، بحيث يجعلُ المتلقي أمامَ تشكيلٍ لغويٍّ جديد له خصوصيتهُ الفردية التي تتركُ إيحاءاتٍ خاصةٍ لديه ، كما نلاحظ أنَّ النص في الوثيقة يحتوي على قرينة صارفة للمعنى الحقيقي للآية القرآنية المتناصِّ معها كما في كلمة (أمير المؤمنين) التي يراد منها الخليفة الخبير لا على وجه الحقيقة كما في الآية المباركة الدالة على أنَّ الله سبحانه هو الخبير ، ومن هنا نستطيعُ القول أنَّ هناك دلالة مركزية للنص القرآني لاتتغير وإن صُرِفَت نحو دلالاتٍ أخرى لغرض توكيد فكرة النص وتعزيزها، ونستطيع إطلاق تسمية (التناصُّ الشكلي) على التناص السابق والذي يقومُ على اجتزاء قطعة من نصٍّ أو نصوص سابقة ووضعها في النص الجديد بعدَ توطئة لها مناسبة تجعلها تتلائمُ مع الموقف الإتصالي الجديد .[٢٠]

ومن الاقتباس القرآني النصي المباشر ما جاء في أحدِ السجلات المعلن فيها عن وفاة الخليفة المستعلي (ت ٤٩٥هـ) ، وولاية الامر للآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ) مكانه ، وذلك ما نصّهُ : ((أما بعد ، فالحمد للهِ المنفردِ بالثباتِ والدّوام ، والباقي على تصرُّمِ الليالي والأيّام ، القاضي على أعمارِ خلقهِ بالتقضّي والانصرام ... [كُلُّ من عليها فان ويبقى وجهُ ربك ذو الجلالِ والإكرام]))[٢١]، فالعبارة الأخيرة آيةٌ من سورة الرحمن، وهي : { كلُّ منْ عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرام} [٢٢] والآية المباركة جاءت على

سبيل الاستشهاد بالقرآن الكريم على أنّ الموتَ سارٍ على كلّ نفس ، وما يلفت الانتباه أن توظيفها جاءت على نسق العبارات السابقة لها من حيث الوزن والتزام السجع وهو الاخير في كلّ جملة ، وهو (الميم) ، ومما جاء في نفس الوثيقة ((حتى أذعَنَ المعندون وأقرَّ الجاحدون ، جاء الحقُّ وظهر أمرُ اللهِ وهم كارهون)) [٢٣] والعبارة الأخيرة هي أيضاً آيةٌ من كتاب الله الكريم وهي : { لقدِ ابتَغُوا الفتنةَ منْ قبلُ وقلّبوا لكَ الأمورَ حتى جاءَ الحقُّ وظهرَ أمرُ اللّه وهم كرهون} ، ولمّا كانت الوثيقة السابقة إعلان عن خلافة الآمر بأحكام الله من بعد أبيه ، فإنَّ الآية المباركة قد وُجّهَت دلالتها لتعطي دلالةً أخرى مفادها أن الآمر بأحكام الله هو الأحق بالخلافة وإن كرِه البعض، علماً أنّ الآية نزلت بحقِّ المنافقين، الذين سلّم اللهُ المؤمِنين من فتنتهم امثال عبد الله بن أبي، فأظهر اللهُ الحقّ عليهم وهم كارهون [٢٤]، فالاقتباس هنا أعطى دلالة فحواها أن من يرفض خلافة المستنصر بالله فحالُه حالُ المنافقين الكارهين للحق، وقد تجلَّت تلك الدلالة في سياقٍ جديد له حكمه الاستعمالي الخاص للآيات القرآنية باستثناء ما تدلُ عليه الآيات بالأصل . [٢٥]

ومن الاقتباس القرآني المباشر ما جاءَ في رسالة أو سِجِلٍّ صادرة عن الخليفة الآمر بأحكام الله يُبرّر فيها أحقية الخليفة المستعلي –والد الآمر- في الخلافة ، وإثبات عدم أحقية أخيه نزار لها ، وقد جاء فيها ((ومولانا المستعلي بالله هو حبلُ الله الممدود ، فمن يقطعُهُ ؟ ومشروع نجاته المورود ، فمَن يمنعهُ ... يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواههم ويأبى اللهُ إلاّ أن يُتمَّ نورَه ولو كرهَ الكافرون)) [٢٦] ، والمقطع الاخير هو آيةٌ قرآنية مُقتبسةٌ من سورة التوبة ، وهي { يُريدونَ أن يُطفئوا نُورَ اللّهِ بأفوههم ويأبى اللّهُ إلّا أن يُتِمَّ نُورهُ ولو كرهَ الكفرون } [٢٧].

وهذه الآية فيها أخبارٌ من الله سبحانه عن الكفار ، وعن اليهود وعن النصارى ، أنهم يريدون إطفاءَ نورِ اللهِ، و (نور الله) في تفسير البعض (القرآن والاسلام) ، وعند آخرين (الدلالة والبرهان) لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالانوار [٢٨] ، وكأن القصد من الاقتباس للآية إعطاء معنى فحواه أن الخليفة المستعلي بالله الفاطمي يمثل القرآن والاسلام ، أو هو الدليل على الهداية وهو الذي يُهتدى به . ومن الاقتباس القرآني المباشر ما جاء في رسالةٍ أو سجلٍّ توسم بـــ (الهداية الآمرية في إبطال الدعوى النزارية) ، وموضوعها هو تبرير أحقية الآمر باحكام الله في الخلافة ، واثبات عدم أحقية نزار لها ، ومما جاء فيها : ((الحمد لله الذي جعلنا للمتقين إماما ، وأقامنا للهدى أعلاما ..... يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتُوا الكتاب يرُدُّوكُم بعدَ إيمانِكُم كافرين ..... لقد خَيرَ من دفعَ مقاماتِ اولياء الله وجحدَ أئِمةَ دينه ..... وإذا قُلتُم يا موسى لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ فادعُ لنا ربّكَ يُخرجُ لنا مِمّا تُنبتُ الارضُ من بقلها وقِثّائِها وفومِهَا وعَدَسِها وبَصَلِها قالَ أتستبدلون الذين هو أدنى بالذّي هو خير)) [٢٩]. ولمّا كانت الوثيقة السابقة في الدعوة إلى خلافة المستعلي بالله ، فإنّ الآيات القرآنية المقتبسة فيها جاءت على سبيل التمويه ، ففي قوله تعالى : { يأيّها الذينَ

ءامنُوا إنْ تُطيعوا فَريقاً مِنَ الذينَ أُوتُوا الكتبَ يردّوكم يعدَ إيمنكُمْ كفرين} [٣٠] ، كأن المقصود منها أنّ إطاعة بعضاً ممن يدعو إلى خلافة نزار أخي المستعلي بالله هو من باب الكفر ، فالمستعلي هو الإمام الشرعي المفترضُ الطاعة ، وكذا المقصود من قوله تعالى المقتبس في تلك الرسالة أو السجل وهو : { قالَ أتستبدلونَ الذي هُو أدنى بالذي هو خير } [٣١]. أي أنّ المستعلي بالله هو الخير لكم ، وما ما عداهُ هو أدنى وباطل .

وممّا جاء في سجلِّ بيعةٍ موضوعها الاعلانُ بولاية العهد من الخليفةِ لابنه ، لم يُذكر مِمّن صدرت [٣٢] ، وممّا جاء فيها : ((... وإنّ اللهَ بحكمته البديعية ورحمتهُ الواسعة ، أقامَ الخلفاءَ قِواماً وبحقّهِ قُوَّاماً ... واستصرفَ بهم عن الخلقِ عذابَ جهنَّم إنَّ عذابَها كان غراما ...)) [٣٣].

ونلاحظ في النص السابق أنّ قوله ((إنّ عذابها كانَ غراماً)) هو آية قرآنية مقتبسةٌ من قوله تعالى : ((والذينَ يقولونَ ربنا اصرف عنّا عذابَ جهنّمَ إنَّ عذابه كان غراماً)) [٣٤] ، ونلاحظ أيضاً جمالية التوظيف للآية المقتبسة إذ جاءت مُنسجمةً معَ ما سبقها من نصٍّ ، وخصوصاً في قولهِ ((واستصرفَ بهم عن الخلق عذابَ جهنم)) ، فكرّر لفظة العذاب بما يناسبها من كلام الله تعالى .

ومن الوثائق الفاطمية ما جاء في سجلٍّ يُبرّرُ فيه الخليفة الحاكم بأمر الله قتلَهُ لوزيرهِ " برجوان " ، ومما جاء فيه : ((من عبد الله ووليه المنصور ابي علي ، الإمامِ الحاكمِ بأمرِ الله اميرِ المؤمنين ... لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ اللهُ لفسدتا فسبحانَ اللهِ ربِّ العرش عمّا يصفون ...)) [٣٥] ، فإذا علمنا أنّ سببَ مقتل الوزير (برجوان) هو تجاوزه لصلاحياته كوزير ، وكان كمن شارك الخليفة في مهامه التي اختصَّ بها ، وقد اشار إلى ذلك الخليفة الفاطمي (الحاكم بأمرِ الله) ، وذلك بقوله : ((ولقد كانَ أميرُ المؤمنين مَلّكَهُ ، فلمّا اساءَ ألبسّهُ النّقم))[٣٦] ؛ ولذلك فإن اقتباس الآية المباركة : ((لو كانَ فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لفسدتا)) [٣٧] الواردة في الوثيقة كان لغرضِ توجيه دلالتها من كونها تعني أنَّ السموات والارض لو كانَ فيهما آلهةٌ غيرُ اللهِ فمن يحقُّ لَهُ العبادة لأنّه لو صحّ ذلك ، لصّح بين تلك الآلهة التمانع[٣٨] ، فدلالة الآية تفيد أنّ الخلافة لا يجتمعُ فيها خليفتان في آنٍ واحدٍ ، وكأنّ الوزير "برجوان" شارك الخليفة في خلافته .

ومن الاقتباس المباشر ايضاً ما جاءَ في وثيقةٍ موضوعها تعيين "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وزيراً للخليفة العاضد ، جاء فيها : ((وأظهرَ في هذه القضية ما أظهره في كُلِّ القضايا من فضلِ أمير المؤمنين وعدله ، فأولياؤه كالآيات التي تتسق دراريُّ افقها المنير وتنتسق دُرَر عِقدها النظيم النضير وما ننسخ مِن آيةٍ أو نُنسها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثلها ألم تعلم أنّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير))[٣٩] وقد عمدَ الخليفة العاضد إلى الاقتباس من كلام الله تعالى ، وقد اختار هذه الآية المباركة ((ما نَنْسخْ من آيةٍ أو نُنْسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها ألم تعلم أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير))[٤٠] ، ليصرفَ دلالتها إلى الوزير صلاح الدين فإن ذهبَ

وزيرٌ حَلّ وزيرٌ آخرُ محلّه ، ولكن في سياقٍ نصيٍّ جديد ، فالتناص يقوم اصلاً على فتحِ حوارٍ مع النص بهدف توظيفه وإعادة انتاجه .

ثانياً : الاقتباس القرآني الإشاري (غير المباشر) . وفي هذا النّوعِ منَ الإقتباس يعمَدُ الكاتبُ إلى التلميحِ، أو الإشارةِ للنصِّ القرآني، وتركِ مُهمّةِ استحضاره للمتلقي، وهذا ما يعطي الكاتبَ مجالاً رحباً، ويُطلقُ العنانَ لإبداعه، ويكسّرُ جمودَ اللغة ليجعلها طيّعَةٍ بين يديه، وهذا النوعُ من الإقتباسِ هو الأكثرُ استعمالاً في مجموعة وثائق الخلافة الفاطمية. يمكن القولُ إنّ هذا النوع من الاقتباس قد ورد في نصوص مجموعة الوثائق الفاطمية متخذاً شكلين هما :

الاقتباس القرآني الإشاري الواضح ، والإقتباس القرآني الإشاري الخفي

اولاً : الاقتباس القرآني الإشاري الواضح .

ومن الأمثلة على هذا النوع من الإقتباسات ما جاء في إحدى الوثائق ، وهي سجل باعلان ولاية العهد من خليفةٍ لولدهِ يقول فيها : ((والحمد للهِ الذي وصل النبوة بالإمامة ، وجعلها كلمةً في عقبه إلى يوم القيامة ...))[٤١] .

وفي النّص إشارة واضحة إلى قوله تعالى : ((وجعلها كلمةً باقيةً في عقبهِ لعلّهم يرجعون))[٤٢] ، وكأن المراد من هذا الاقتباس الإشارة إلى شرعية إمامة الخليفة الفاطمي ، علماً أن الكلمة الباقية في النص القرآني قد وردَت تأويلاتٌ كثيرةٌ بحقّها ، ولا بأس بالإشارة إلى بعضها ، ومنها : أن المراد من قوله تعالى : (وجعلها كلمةً باقيةً) هو قول (لا إله إلاّ الله) ، وقيل (الاسلام) ، وقيل (ولده وذريته) ، و قيل (آل محمد) عليهم السلام[٤٤] .

ومن الاقتباس القرآني الإشاري الواضح ما وردَ في سجلٍ بتولية " ابن شاور" نيابة الوزارة عن أبيه جاء فيها ((والحروبُ فمرباه في مهودها ، ومنشؤها بين اسودها ... وجعلتهم حصيداً خامدين...))[٤٥] وفي النص اشارة جلية إلى قوله تعالى : ((فما زالَتْ تلكَ دعواهم حتّى جعلنهم حصيداً خمدين))[٤٦] ومن الاقتباس القرآني الإشاري الواضح ما جاء في رسالةٍ أو سجلٍّ في أحقية المستعلي في الخلافة جاء فيها : ((هو ادعاء لهم أنه اختيار من المؤيد الذي لا ينطق عن الهوى..))[٤٧]

والنص من غير شك يتناصُّ مع قوله تعالى : ((وما ينطِقُ عنِ الهوى إنْ هوَ إلّا وحيٌ يوحى))[٤٨] ، ولو تمعّنا قليلاً بتأمل إزاء هذه الآية ، فمعناها أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ((لا يتكلّم في القرآن ، وما يؤديه اليكم عن الهوى الذي هو ميل الطبع ... ليس الذي يتلوه عليكم من القرآن الاّ وحيٌ أوحاه الله إليه))[٤٩]، ولعلنا نلمح السبب وراءَ التناص مع الآية السالفة الذكر وهو إضفاء شيء من القدسية إلى كلام الخليفة الفاطمي ،

ومن ذلك أيضاً ما جاء في احدى الوثائق التي تنص على تعيين "صلاح الدين يوسف بن ايوب" وزيراً للخليفة العاضد ، وقد جاء فيها : ((ولمّا رأى اللهُ تقلُّبَ وجه امير المؤمنين في سمائه ولاّه من اختيارِكَ قِبْلَهُ ، وقامت حُجّتَهُ ...))[٥٠] . وظاهر الكلام يُشير صراحةً إلى قوله تعالى : ((قَدْ نرى تَقَلّبَ وجهِكَ في السّماء فلنولينَّكَ قبلةً ترضها))[٥١] . ولكنّ الخليفة عمدَ إلى التحوير وإزاحة الدلالة الاصلية نحو دلالةٍ أخرى في نصٍّ مستقلٍّ بمعناه .

ثانياً : الاقتباس القرآني الإشاري الخفي .

ومن امثلة هذا النوع من الاقتباس ما جاء في سجلٍ باعلان ولاية العهد من أحدِ الخلفاءِ الفاطميين لولده كُتِبَ بخطِّ "القاضي الفاضل" ، جاء فيه ((واجتمعَ لكَ مزيّةَ الشرفين من الطرفين: الأبوة والنبوة ، وأخذ كتابَ الحكمة ومصون العصمة بقوة))[٥٢]

ونلمَحُ من بعضِ الالفاظ كقوله (كتاب ، بقوة) ، والتي زُجَّت في تركيبٍ جديد بغيةَ تحقيق دلالةٍ جديدة ، أنّها مقتبسة من قوله تعالى : ((يا يحيى خُذِ الكتبَ بقوّةٍ))[٥٣] ، ولكنّها لم تُقتَبس بالشكل الذي عهدناه في الاقتباس القرآني الإشاري الواضح ، فالاقتباس الأخير لم يُحدِث فيه المتحدث تغييراً كبيراً ، بل حاول الاحتفاظ بشكل النص المقتبس والمحور ما يجعله قريباً من النّص الأصلي .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في وثيقةٍ موضوعها (سجل بتولية شاور الوزارة للمرة الثانية) والصادرة عن الخليفة العاضد إلى الوزير شاور ، ومما جاءَ فيها : ((وأفظع ما كان فيه ما أصيبَ به ولدُكَ الأكبر –رضي الله عنه ... واستفتح لك الحظ من النصر على الباغي ...))[٥٤] ، والنّص السابق كسابقه ، فبعد تأمّلٍ في بعضِ ألفاظه نجد أنه أقتبس من قوله تعالى : ((إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ))[٥٥] ، وما يؤكد ذلك أن الوثيقة صدَرت لإعادة شاور إلى الوزارة بعد صراعٍ مع "ضرغام" المنافس لشاور ، والذي قتل الولدَ الأكبر لشاور ، وقد أقتُبِسَت فكرةُ النّصر والفتح لشاور من سورة النصر ، وبألفاظٍ محدّدة كقوله : (واستفتح ، والنّصر) .

ومن ذلك أيضاً ما جاء في أحدِ الوثائق وموضوعها (تعيين وزير) ، والصادرة عن أحد الخلفاء إلى الوزير المعيّن وقد جاءَ فيها : ((يحمُدهُ أميرُ المؤمنين أن استخلَفَهُ في الأرض وناطَ به اسباب البرم والنقض ...))[٥٦] .

ومضمون النص السابق فضلاً عن بعض الألفاظ كقوله : (استخلفه ، والأرض) يتناص معَ قوله ((وإذ قالَ ربّك للملئكةِ إنّي جاعلٌ في الأرضِ خليفة))[٥٧] ، وكذلك معَ قولهِ تعالى :((يا داودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ))[٥٨]، وأراد الخليفة من قوله (استخلفه) أن يشير إلى أن قضية خلافته كانت بجعلٍ إلهي .

ونخلصُ ممَّا سبق أنَّ التناص القرآني لدى الكتاب الفاطميين بمختلف تمظهراته التي أشار لها البحث كشف عن مقدرة أولئك الكتاب في التصرف بالمعاني القرآنية وتوظيفها داخل النصوص بتصرفٍ واعٍ ، وهذا يصبُّ في مصطلح التناص ، فمن قوانين التناص المعروفة ما يسمَّى بعملية (الإمتصاص والتحويل) التي تعني أخذ المعنى والذهاب به إلى أبعد مما هو عليه أو ما يسمى بـ (التناص التحويلي)[٥٩] ، ومن النقاد الغرب الذين عنوا بتلك المسألة الناقد الغربي (جيرار جينيت) ، إذ أشار إلى مسألة النص المتفرع من نصوصٍ أخرى بعملية تحويلية معينة ، إلّا أنَّ ذلك التحويل لايعني التقليد التام للنص السابق ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ مستحيل فالمبدع مهما بلغ من التقليد لنصٍ ما فلا يمكنه أن يعيدَ إنتاجه .

ـ خاتمة ـ

بعدَ حمدِ اللهِ والثناءِ عليه ، فهذه أهم النتائج التي خرجَ بها البحث، والتي يجدرُ بنا أن نسلطَ الضوءَ عليها وهي:

١ـ كثرةُ الاقتباسات من القرآن الكريم في وثائق الخلفاء الفاطميين ، سواء أكانَ ذلك الاقتباس مباشراً أم غير مباشر ولعلّ السبب في ذلك هو حرصُ الخلفاء الفاطميين على منحِ الكتبِ الرسمية الصادرة عنهم طابعاً شرعياً مستمداً من القرآن الكريم ، فضلاً عن منحها القوة في التعبير ، وتلك القوة مُستمَدَّةٌ من بلاغة القرآن الكريم .

٢ـ عَمَلَ الخلفاءُ الفاطميون على توجيه دلالة النصوص القرآنية المقتبسة بما يتناسب والموضوع المراد عبر آلية الإمتصاص والتحويل مع وجود قرائن صارفة عن إيراد المعنى الحقيقي للآيات القرآنية المتناصِّ معها.

٣ـ لاحظَ البحثُ وجودَ إفراطٍ جلي في اقتباس الآيات القرآنية ، فقد أقحمَ الكتاب الفاطميون الآياتِ القرآنية إقحاماً وزجِّها في كتاباتهم ممَّا أدَّى إلى إضعاف النصوص بكثرةِ ما اقتبسوه من القرآن الكريم ، فابتعدت بذلك نصوصهم شيئاً ما عن التعبير الفني ، ولايعني ذلك أننا نُقلِّل من بلاغة التناص القرآني وإيحائه ، إلّا أنَّنا لا نتفق مع استعمال الآياتِ القرآنية بهذه الكثرة المفرطة التي تؤدِّي إلى فقد النص لفنيته ، فالتناص القرآني أداة أو وسيلة يأتي بها المبدع لغرض التوكيد والتوضيح ، ومن هنا نستطيع القول أن هناك تناصٌ جيدٌ، وهناك تناص رديء.

هوامش البحث

١. ينظر : لسان العرب : ابن منظور، جمال الدين ابو الفضل (ت ٧١١ه) تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون، دارالمعارف،(د.ط) القاهرة : مادة (نصَصَ) .

٢. ينظر : التضمين وعلاقته بالتناص الاقتباسي : أ . آمنة محمد الطويل ، مجلة الجامعة ، العدد (١٢) ، لسنة ٢٠١٠ : ١١٢ .

٣. ينظر : الاثر القرآني في نهج البلاغة ، دراسة في الشكل والمضمون : عباس علي حسين الفحام ، العتبة العلوية المقدسة ، الرسائل الجامعية (٤) ، النجف الأشرف عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١٢ م : ١١.

٤. ينظر : اشكال التناص الديني في شعر خليل حاوي : د. علي نجفي أيوكي ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، العدد (٦) ، لسنة ٢٠٠١ : ١١٦.

٥. المرجع نفسه : ١١٦ .

٦. الاقتباس والتناص من القرآن الكريم لدى شعراء مجلة الادب الاسلامي : منجد مصطفى بهجت ، أنس حسام النجمي ، مجلة سمات ، العدد (٢) لسنة ٢٠١٣ : ٢٥٨ .

٧. الكتابة ومفهوم التناص : د. سلام الأعرجي ، مجلة الرقيم ، العدد(٣) ، لسنة ٢٠١٣ : ١٠٣ .

٨. الإيضاح في علوم البلاغة : محمد بن عبد الرحمن القزويني ، (ت ٧٣٩ه) تحقيق : مجدي فتحي السيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د.ت : ٢٦٢ .

٩. أحاسن الاقتناس في محاسن الاقتباس : جلال الدين السيوطي ، تحقيق وشرح : محمد عبد الرحيم ، دار الانوار ، دمشق ، (د.ط) ، ١٩٩٥ : ٥٣ .

١٠. الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي : عبد الهادي الفكيكي دار النمير للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط١، ١٩٩٦ م : ٥١ .

١١. ينظر : اشكال التناص الديني في شعر خليل حاوي : د . علي نجفي أيوكي ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، العدد (٦) ، لسنة ٢٠١١ : ١١٦ .

١٢. ينظر : الاقتباس والتناص من القرآن لدى شعراء مجلة الادب الاسلامي : منجد مصطفى بهجت ، انس حسام النجمي ، مجلة سمات العدد (٢) ، لسنة ٢٠١٣ : ٢٥٨ .

١٣. الكتابة ومفهوم التناص : د. سلام الاعرجي ، مجلة الرقيم ، العدد (٣) لسنة ٢٠١٣ : ١٠٣ .

١٤. ينظر : القرآنية في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي : أ. م . د. علي كاظم المصلاوي ، أ .م. د. كريمة نوماس المدني ، مجلة أهل البيت (عليهم السلام) ، العدد (٦) ، د.ت : ٢٧٩ .

١٥. ينظر : الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري : د. عبد الله محمد جمال الدين دار الثقافة والنشر والتوزيع ، د. ط ، القاهرة ، ١٩٩١ م : ٥٥ التشيع المصري الفاطمي اشعاع حي وحضاري ، د. حسن محمد صالح ، دار المحجة البيضاء ، مركز تحقيقات كامبيوتري علوم اسلامي، د.ت: ١١٠ – ١١٣ .

١٦. ينظر : التمهيد لهذا البحث : ٣ .

١٧. مجموعة الوثائق الفاطمية ، وثائق الخلافة ، وولاية العهد ، والوزارة ، جمعها وحققها : د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافية الدينية ، ط١ ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، القاهرة : ١٣٢ .

١٨. سورة فاطر : ١٤ .

١٩. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ه) دار احياء التراث العربي ، د.ط ، بيروت : ٤٢١/٨

٢٠. ينظر : التناص القرآني في شعر أحمد شوقي ، د. آمنة موسوي شجري ، د. محمد حسن معصومي ، (د.ط) : ٣ .

٢١. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٩٩.

٢٢. سورة الرحمن : الايتان ٢٦ – ٢٧ .

٢٣. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٩٩.

٢٤. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٣٢/٥ .

٢٥. ينظر : دلالة التناص في القرآن الكريم ، د. عرابي أحمد ، (د.ط) : ٩.

٢٦. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢١٨ .

٢٧. التوبة : ٣٢ .

٢٨. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ٢٠٧ .

٢٩. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢١٢ .

٣٠. ال عمران : ١٠٠ .

٣١. البقرة : ٦١ .

٣٢. ينظر : مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢٦٧.

٣٣. المصدر نفسه : ٢٦٧ .

٣٤. الفرقان : ٦٥ .

٣٥. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢٨٤.

٣٦. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢٨٥

٣٧. الانبياء : ٢٢

٣٨. ينظر : التبيان في تفسير القران : ٢٣٩/٧

٣٩. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٣٤٧ .

٤٠. البقرة : ١٠٦ .

٤١. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٣١ .

٤٢. الزخرف : ٢٨ .

٤٣. ينظر : التبيان في تفسير القرآن : ١٩٣/٩-١٩٤ .

٤٤. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٨٠ . الانبياء : ١٥ .

٤٥. الانبياء : ١٥ .

٤٦. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٨٠ .

٤٧. النجم : ٣-٤ .

٤٨. التبيان في تفسير القرآن : ٩ / ٤٢١ .

٤٩. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٣٥٠ .

٥٠. البقرة : ١٤٤ .

٥١. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٣١ .

٥٢. مريم : ١٢ .

٥٣. مجموعة الوثائق الفاطمية : ١٧١ .

٥٤. النصر : ١ .

٥٥. مجموعة الوثائق الفاطمية : ٢٧٧ .

٥٦. البقرة : ٣٠ .

٥٧. ص : ٢٦ .

٥٨. ينظر : التناص الآلية النقدية مقترب تأريخي من المناهج النقدية الحديثة : داود سلمان الشويلي ، مجلة الموقف الثقافي ، العدد : ٢٦ لسنة (٢٠٠٠) : ٦٠ – ٦١ .

٥٩. ينظر : مشكلة التناص في النقد الأدبي المعاصر : محمد أديوان ، مجلة أقلام ، العدد : ٤، ٥ ، ٦ ، لسنة (١٩٩٥) : ٤٦ -٤٧.

ـ المصادر والمراجع ـ

- القرآن الكريم .

أولاً :

١- الأثر القرآني في نهج البلاغة ، دراسة في الشكل والمضمون ، عباس علي حسين الفحام ، مكتبة الروضة الحيدرية ، الرسائل الجامعية (٤) ، النجف الاشرف عاصمة الثقافة الاسلامية ، ط١، ١٤٣٢ ه ـ ٢٠١١ م .

٢- أحاسن الاقتناس في محاسن الاقتباس ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق وشرح : محمد عبد الرحيم ، دار الانوار ، دمشق ، د.ط، ١٩٩٥ .

٣- الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي ، عبد الهادي الفكيكي ، دار النمير للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٦ م .

٤- الإيضاح في علوم البلاغة ، محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩ ه) تحقيق : مجدي فتحي السيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، د. ت .

٥- التبيان في تفسير القرآن ، ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠ ه) ، دار احياء التراث العربي ، د. ط بيروت .

٦- التشيع المصري الفاطمي اشعاع حي وحضاري ، د. حسن محمد صالح ، دار المحجة البيضاء ، د.ت .

٧- الدولة الفاطمية قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري مع عناية خاصة بالجيش ، د. عبد الله محمد جمال الدين ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، د.ط ، ١٩٩١ ، القاهرة .

٨- لسان العرب ، ابن منظور ، جمال الدين ابو الفضل (ت٧١١ ه) تحقيق : عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، د.ط ، د.ت ، القاهرة .

٩- مجموعة الوثائق الفاطمية (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة) جمعها وأعدها للنشر : د. جمال الدين الشيال ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٢ ه ـ ٢٠٠٢ م .

ـــ الدوريات ـــ

١ ـ القرآنية في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي ، أ. م. د. علي كاظم المصلاوي ، أ. م. د. كريمة نوماس المدني ، مجلة أهل البيت (عليهم السلام) ، العدد (٦) ، د. ت .

٢ــ التضمين وعلاقته بالتناص الإقتباسي، أ. آمنة محمد الطويل ، مجلة الجامعة ، العدد (١٢) ، لسنة (٢٠١٠ م) .

٣ــ أشكال التناص الديني في شعر خليل حاوي ، د. علي نجفي أيوكي، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد (٦) ، لسنة (٢٠١١ م) .

٤ــ الكتابة ومفهوم التناص ، د. سلام الأعرجي ، مجلة الرقيم ، العدد (٣) ، لسنة (٢٠١٣ م) .

٥ــ الاقتباس والتناص من القرآن الكريم لدى شعراء مجلة الأدب الإسلامي ، منجد مصطفى بهجت ، أنس حسام النجم ، مجلة سمات ، العدد (٢) ، لسنة (٢٠١٣ م) .

٦ ــ التناص القرآني في شعر أحمد شوقي ، د. آمنة موسوي شجري ، د. محمد حسن معصومي ، (د. ط) .

٧ــ دلالة التناص في القرآن الكريم ، د. عرابي أحمد ، (د. ط) .

٨ ــ الآلية النقدية مقترب تأريخي من المناهج النقدية الحديثة : داود سلمان الشويلي ، مجلة الموقف الثقافي ، العدد : ٢٦

لسنة (٢٠٠٠) .

(٩) مشكلة التناص في النقد الأدبي المعاصر : محمد أديوان ، مجلة أقلام ، العدد : ٤، ٥ ، ٦ ، لسنة (١٩٩٥) .